متابعة

من المعرض (العربي الجديد)

يشهد المعرض، المُقام حالياً، إقبالاً كبيراً من الزوّار، غير أنّ الارتفاع المفاجئ في أسعار الكتب الجديدة أثّر سلبيّاً على القدرة الشرائية لكثير منهم، ما جعلهم يتّجهون إلى المساحات الخاصّة بالكتب المستعملة

معرض مكتبة الإسكندرية زوّارٌ أكثر مبيعاتٌ أقلّ

الكِتاب المستعمَل بديلاً

الإسكندرية ـ **أحمد عبده**

تُسجّل الكتب المستعمَلة حضوراً لافتاً في الدورة التاسعة عشرة من «معرض مكتبة الإسكندرية الدولي للكتاب»، التي افتتحت الاثنين الماضي وتستمرّ حتى الثامن والعشرين من الشهر الجاري؛ إذ تجتذب الخيام والمساحات الواسعة المخصَّصة لها، أعداداً كبيرة من الزوّار الذين يجد كثيرٌ منهم فيها ضالّته، مقابل أسعار منخفضة تتراوح غالباً بين عشرة وعشرين جنيهاً للكتاب الواحد، وتصل إلى خمسين جنيهاً حين يتعلّق الأمر ببعض الإصدارات النادرة.

وبينما يشهد المعرض إقبالاً واسعاً، عبّر كثيرون عن استيائهم من الارتفاع المفاجئ في أسعار الكتب الجديدة، وهو ما أثّر على قدرتهم الشرائية وجعلهم يتّجهون إلى المساحات الخاصّة بالكتب المستعملة. مِن بين هؤلاء يسرا المهدي، وهي طالبةٌ في «كلّية الاقتصاد والعلوم السياسية»؛ حيث تقول لـ«العربي الجديد»: «تحمّستُ لشراء مجموعة من الكتب الجديدة في مجال دراستي، غير أنّني فوجئت بأنّ سعر الكتاب الواحد يزيد عن خمسمئة جنيه، وهذا مبلغٌ باهظ لي».

الأمر نفسه حدث مع إبراهيم علاء، الطالب في «كلّية الهندسة»، والذي يقول: «بحثتُ عن بعض الكتب التي نصحني أحد أساتذتي بقراءتها، فوجدت أنّ سعر الواحد منها يصل إلى 350 جنيهاً. كنتُ سأغادر المعرض من دون اقتناء أيّ منها، غير أنّي اتّجهت إلى الركن الخاص بالكتب المستعمَلة، وهناك وجدتُ ما كنت أبحث عنه مقابل أربعين جنيهاً فقط».

أعلنت دور النشر خصوماتٍ في أسعار بعض الكتب، خلال المعرض، تصل إلى 20%. لكن تلك التخفيضات «لا تعني شيئاً قياساً بالأسعار المرتفعة جداً والمدوَّنة أعلى الأرفف»، وفق تعبير علاء، والذي يضيف: «بفضل الأسعار الرمزية يتمكّن القرّاء من اختيار ما يناسب ميزانياتهم واهتماماتهم».

من جهتها، تتساءل مها ناجي، وهي زائرةٌ التقيناها في المعرض: «كيف يمكنني شراء كتب لأولادي بهذه الأسعار المرتفعة؟ خصوصاً أنّ كلاًّ منهم يحتاج إلى أكثر من كتاب واحد؟»، وتستطرد: «أردتُ شراء كتابَين فقط، ولكن إجمالي سعرهما تجاوز خمسمئة جنيه، وهو ما لا أستطيع تحمُّله. وهكذا كان عليّ التوجُّه إلى الكتب المستعمَلة، حتّى وإن لم تُلبِّ كلّ احتياجاتي».

أمّا جاكلين ماجد (27 سنة)، فتقول: «اعتقدتُ أنّني سأعود من المعرض وأنا أحمل قائمةً كبيرة من كتبي المفضَّلة، ولكنّني الآن أشعر بأنّ هذا الحلم بعيد المنال بعد رؤيتي للأسعار المرتفعة التي حوّلت فرحتي وحماستي إلى حزن واستياء»، وتُضيف: «يتعلّق الأمر هنا بإعاقة وصول المجتمع إلى المعرفة والثقافة؛ فالكُتب هي أساس التقدُّم الإنساني، وينبغي أن تكون متاحةً للجميع بغضّ النظر عن دخلهم أو وضعهم الاقتصادي، ويجب أن نعمل لضمان أن يحظى الجميع بفرصة الوصول إليها والاستفادة منها».

في المقابل، عبّر ناشرون وقائمون على المعرض عن تفهُّمهم لانتقادات الزوّار بشأن ارتفاع أسعار الكتب بنسبة وصلت إلى أكثر من خمسين في المئة، غير أنّهم، في الوقت نفسه، اعتبروا أنّهم مضطرّون إلى رفع الأسعار لأسباب عديدة؛ من بينها «ارتفاع تكاليف الإنتاج، وفي مقدّمتها تكلفة الورق والطابعات»، مثلما يذكر الناشر علي فتحي في حديثه إلى «العربي الجديد»، والذي يُشير، أيضاً، إلى أنّ «أسعار الشحن العالمية شهدت تقلّبات كبيرة أثّرت سلباً على الناشرين، ولا بدّ أن نعرف أنّ تكلفة إنتاج بعض الكتب تتجاوز سعر بيعها، ولكنّنا نضطرّ إلى توفيرها لأسباب تسويقية».

ورغم الإقبال الكبير على المعرض، يؤكّد فتحي أنّ المبيعات تشهد تراجُعاً مستمرّاً؛ حيث «يكتفي الكثيرون بالاطلاع على العناوين». من جهته، يُؤكّد الناشر ورئيس «جمعية الكتاب» بالإسكندرية، حسن أحمد، أنّ صناعة الكتاب، كغيرها من السلع والخدمات، تأثّرت بالغلاء والأزمة الاقتصادية؛ وبسبب ذلك «نحاول دائماً تقديم خصومات تساعد على خفض الأسعار، لتشجيع القراءة»، ويضيف: «مشكلة الأسعار تحتاج إلى حلّ جذري يتطلّب حواراً بنّاء بين جميع الأطراف المعنية بسوق الكتب».

يتطلّب ارتفاع الأسعار حواراً بين الأطراف المعنية بصناعة الكتاب

وحول العناوين الأكثر طلباً في ركن الكتب المستعملة، يوضّح المتحدّث: «من الواضح أنّ الروايات والقصص والكتب الدينية هي الأكثر مبيعاً في جناح الكتاب المستعمَل؛ حيث يجري عرضُها بأسعار تتراوح بين خمسة عشر وخمسين جنيهاً، كما تحظى كتب الأطفال والمقرّرات الجامعية بإقبال ملحوظ أيضاً. أمّا ما يخص الكتب الأجنبية، فإنّ أكثرها طلباً هي الروايات الغربية الشهيرة التي تُعرض بأسعار لا تتجاوز ثلاثين جنيهاً، في حين تُعرض بعض العناوين القيّمة والنادرة بأسعار مرتفعة نسبيّاً، تصل إلى خمسين جنيهاً للكتاب الواحد».

يضيف أحمد: «يمثّل المعرض مقصداً لكلّ فئات المجتمع وشرائحه العمرية من الأطفال إلى كبار السن، غير أنّ أغلب الزوّار هُم من فئة الشباب الجامعيّين وما بعد الجامعة، وتحديداً الشباب بين 18 و30 عاماً، وهذه الفئة لا يسمح لها وضعها المالي بشراء الكتب باهظة الثمن، فتلجأ إلى الكتب المستعملة».

يُذكَر أنّ الدورة التاسعة عشرة من «معرض مكتبة الإسكندرية الدولي للكتاب» تُقام بمشاركة قرابة سبع وسبعين دار نشر من مصر وبلدان عربية أخرى، ويُقام على هامشها برنامجٌ ثقافي يتضمّن نحو 160 فعاليةً تتوزّع بين الندوات والمحاضرات والمؤتمرات وورش العمل، والتي تتناول محاور من بينها: التاريخ، والأدب، والنشر، والذكاء الاصطناعي، والصناعات الإبداعية، والدراما المصرية، والإعلام، والشباب، والمرأة، والطفل، وعلاقات مصر الثقافية.

مُشاهدة

يومك يومك مسرح تفاعلي عن هموم الناس في لبنان

خشبةٌ بسيطة ومن خلفها البحر

يضع العرض، الذي يُقدّم حالياً في عدّة مناطق لبنانية، الجمهور أمام العنف الممارَس اجتماعياً وطبقياً وجندرياً؛ على النساء والفقراء واللاجئين

بيروت ـ **أنس الأسعد**

شملت العروض طرابلس وصيدا والمخيّمات ومناطق مهمّشة أخرى (العربي الجديد)

يقترب الوقت من المغيب، وبائعو الورد الأطفال وصيّادو السمك والعمّال المنتشرون على رصيف عين المريسة في بيروت أوشكوا على الانتهاء من أشغالهم البسيطة، بعد يوم من أيّام العمل اللّاهبة في بلاد الانهيارات المصرفية والاستغلال الطبقي. وسط هذا المشهد، تنتصب خشبة بسيطة ومن خلفها البحر، لا يُؤثّثها شيء سوى حكايات الناس وهمومهم، وموهبة ورشاقة ممثّلي فرقة «Clown Me In» الذين اعتلوها وراحوا يدعون المارّة للانضمام إلى عرضهم التفاعلي «يومك يومك»، العبارة التي تُستخدم عادةً للدلالة على طلب كفاف اليوم واستحالة التفكير بأية مشاريع مستقبلية. قدّمت الفرقة مشاهد قصيرة، اشترك في أدائها كلٌّ من: سامر سركيس، وروى حسامي، وروى خرّاط، وجنى مغامس، ورامي أبي خليل، ليبدأ العرض بمشهد أوّل يبحث فيه ابن ناطور العمارة عن قلمه الضائع، وسرعان ما يقودنا هذا البحث إلى متاهة سلطة تُضيّع أبسط حقوق الإنسان، كالتعليم والطبابة والعيش الكريم. إنّه مشهدٌ يُحيل إلى صميم الواقع السياسي، ألمْ يخرج علينا، قبل أيام، أحد رؤوس هذه السلطة ليُطالب بمنع تعليم أبناء اللّاجئين في المدارس الرسمية؟

يضع العرض الجمهور أمام العنف العاري الممارَس اجتماعياً وطبقياً وجندرياً؛ من الرجال على النساء، ومن الأغنياء على الفقراء، ومن «الأُصَلاء» على «الدخَلاء»، وإن ظلّ هذا المستوى الأخير مستبطَناً وغير مباشر، لكن يكفي أن يُفتتح العرض بحكاية ناطور العمارة، الذي لديه عدد كبير من الأولاد، حتى نلتقط الإشارة، ويكفي أن نستكمل مَشاهد الحكاية في البيت والمدرسة والمستشفى والفضاء العام حتى نعرف أنّ المعنيّين هُم اللاجئون السوريّون في لبنان: النساء وبائعو الورد الأطفال وصيّادو السمك والعمّال. تستقي «Clown Me In»، بصفتها فرقة تنتمي إلى مسرح الشارع، قصصها من واقع الطبقات المعدومة، لكنّها لا تُعيدها إليهم كما هي، بل تُحرّضهم عليها، تُشعرهم بمظلوميّتهم، ثمّ تتتبّع أثر هذا الظلم لتستقرئ أيَّ ردّات فعل ستنبني عليه.

مشاهد واقعية يمثّل الضحك فيها ضرورة لمواجهة قسوة الحياة وعسف السُّلطة

يطلب الممثّلون من الجمهور أن يرفع صوته عندما يبلغ الاستفزاز حدّه، يصرخ أحد الحاضرين بكلمة «Stop»، ثم يعتلي الخشبة في محاولة لتحويل اعتراضه على العنف إلى تغيير حقيقي. حول طبيعة العرض وفكرته تحدّثت العضو في الفرقة غالية صعب إلى «العربي الجديد» موضّحة: «ما نشتغله هو Forum theatre، مسرح تفاعُلي عن المضطهَدين ولهم، يسمح للجمهور بالمشاركة مع الممثّلين في اقتراح حلول، وإعادة تركيب المَشاهد عبر تدخُّل الحاضرين في المواقف التي يعتبرونها صادمة، كما أنّ القصص التي نعرضها حقيقية، ولاحقاً نُطوّرها ونمزجها بنوع من اللعب والطرح الذي يستفزّ الجمهور من موقعه».

من جهتها، لفتت العضو في الفرقة الناشطة والفنّانة السورية ديمة نشاوي إلى أنّ «الوضع الأمني كان من أبرز التحدّيات التي واجهت العرض والتحضير له، حيث كان من المفترض أن نقول الأشياء بوضوح أكبر، لكنّ الحملة التحريضية الأخيرة ضدّ اللّاجئين السوريّين في لبنان جعلتنا نُحجم عن الطرح المباشر، وبالتالي ليست لدينا القدرة على العرض في كلّ المناطق ببيروت، مع أنّ عروضنا شملت طرابلس وصيدا والمخيّمات ومناطق مهمّشة أُخرى».

إضاءة

صورة الشاعر بين حياته وكتاباته

بابلو نيرودا في زمن آخر

لمناسبة ذكرى ميلاده المئة والعشرين، ناقش ملحق «Culto» الأدبي حضورَ الشاعر التشيلي في القرن الحالي وإلى أيّ مدى يُمكن الفصل بين حياته وعمله الإبداعي

سانتياغو ـ **العربي الجديد**

كيف يُقرأ بابلو نيرودا في القرن الحالي؟ وما مدى تأثير إرثه الأدبي في تشيلي أوّلاً وفي الأدب العالَمي ثانياً؟ وإلى أيّة درجة يَستحضر الجيلُ الشاب في أميركا اللاتينية أعماله الشعرية؟ هذه بعض الأسئلة التي طرحها ملحق «Culto» الأدبي في جريدة «لا تيرسيرا» التشيلية، من خلال ملفّ خصّصه لصاحب «كتاب التساؤلات» (1974) في ذكرى رحيله المئة والعشرين الموافقة للثاني عشر من تمّوز/يوليو الجاري.

شاركت في الملفّ، الذي حمل عنوان «من كاتب كلاسيكي إلى تراجُع شخصيّته: كيف نقرأ بابلو نيرودا اليوم؟» مجموعة من الكتّاب والصحافيّين والمختصّين بأعمال بابلو نيرودا (1904 - 1973) الذي كان ثاني شاعر تشيلي يفوز بجائزة نوبل للآداب عام 1971، بعد مواطنته الشاعرة غابرييلا ميسترال (1889 - 1957) التي حازت الجائزة عام 1945.

تنوّعت قراءات المشاركين في الملفّ، استناداً إلى حضور نصوص نيرودا وتأثيرها في القرن الحالي، إضافة إلى مجموعة من العوامل الاجتماعية والسياسية والشخصية المتعلّقة بحياته والظروف التاريخية التي عاشها، وإلى أي مدى يمكن فصل منجزه الإبداعي عن حياته وسلوكياته.

البداية كانت مع الكاتب والصحافي داريو أوسيس، الذي يصف نيرودا بأنّه شاعرٌ استثنائي»، لكنّه، مع ذلك، يرى أنّ أعماله غير معروفة على الإطلاق: «ربّما يعرف الجيل الجديد جزءاً بسيطاً منها؛ حيث يختصرون عمله الضخم في كتاب واحد هو «عشرون قصيدة حُبّ وأغنية يائسة» (1924). وبناءً عليه يقولون إنّه شاعر حُبٍّ بامتياز، ولذلك لا يقرأون أعماله الأُخرى، لا سيّما في ظلّ تراجُع الشعر عموماً في العالَم». ويخلص أوسيس إلى القول بأنّ نيرودا «شاعرٌ موسوعي قال العالَمَ كلَّه في شعره».

ويوافق المؤرّخُ الإسباني ماريو آماروس، صاحبُ كتاب «سيرة حياة نيرودا»، زميلَه بخصوص تراجُع قراءة الشعر حول العالم، غير أنّه يُصرّ على أنّ «نيرودا شاعر كلاسيكي، ولا يمكن فهم القرن الحادي والعشرين شعرياً من دونه».

أمّا الكاتبة والأكاديمية باتريسيا تيردا، فتُحاول قراءة نيرودا في إطار العصر الذي عاش فيه. بالنسبة إليها، بدأت أهمّية نيرودا تزداد في القارة اللاتينية مع الحرب الباردة، لأنّه وقف بشكل واضح مع ستالين والاتحاد السوفييتي. وهكذا برز في تشيلي ومُجّد لأسباب سياسية لها علاقة بدعمه الأيديولوجية الاشتراكية. وكان ذلك على حساب غابرييلا ميسترال التي جرى نسيانها لأسباب ذكورية أيضاً.

تضيف تيردا: «اليوم، بالكاد يَذكر أحدٌ من الجيل الجديد من الكتّاب في تشيلي خصوصاً، وفي القارة اللاتينية عموماً، بابلو نيرودا، وإذا ما ذُكر، فمعظم قرّائه يعودون إلى قصائده الأُولى لا أكثر. أثّر في هذا الأمر بشكل كبير سلوك الشاعر وتصرّفاته. لكن مع ذلك يجب أن نميّز بين أفكار الشاعر ونتاجه الأدبي وبين سلوكيات حياته». تأخذ الأكاديمية والناشطة النسوية، مونتسرات مارتوريل، خيط هذه الفكرة لتنسج فكرة مخالفة؛ حيث تقول: «ثمّة بعض الأمور التي يمكن تقييمها باستخدام نماذج معيّنة دون غيرها. لكن، بالنسبة إليّ، وعندما يتعلّق الأمر بشخصية أدبية مثل نيرودا، أُركّز على الجانب المتعلّق بشخصيته أكثر من عمله الأدبي وإنجازه بشكل عامّ. النسوية هي طريقتي لفهم العالَم الذي أتحرّك فيه. فكيف أستطيع أن أفهم كاتباً اعترف في مذكراته «أعترف بأنّني قد عشت» أنه اغتصب فتاةً، ثم من هنا كان سؤالي: أية قيمة أدبية أو أخلاقية يمكن أن يحمل عمل شاعر يقوم بفعلة كهذه؟».

مُجّد لأسباب سياسية تتمثّل في دعمه الأيديولوجية الاشتراكية

تبقى صورة بابلو نيرودا إشكالية، ولا شك أنّها تدهورت في العقود الأخيرة في بلده وفي العالَم، بعد تأكيد حادثة الاغتصاب، ومع ظهور الحركات النسوية والتغيرات الاجتماعية والسياسية. لكن هل يلغي ذلك أنّه شاعر كلاسيكي؟ وإلى أيّ درجة يمكن التمييز بين الكاتب وسلوكياته؟ أسئلة تركها «الملحق الأدبي» من دون إجابة في دعوة للقرّاء إلى اجتراح إجاباتهم الخاصّة.

من احتفال في سانتياغو بفوز نيرودا بـ«جائزة نوبل للآداب» عام 1971 (Getty)

إطلالة

مدينة أسامة بعلبكي وموسيقاه

عباس بيضون

ندخل إلى معرض «ضوء داخلي» للفنّان اللبناني أسامة بعلبكي، الذي اختتم أمس في «غاليري صالح بركات» ببيروت، بألفة بالغة. حين نغدو وسط اللوحات نشعر بأنها تخصُّنا، وبأنّنا هكذا في منازلنا. إنّنا في مكان له هويته، بل إنّ هذه الهوية لا تزال تسكن اللوحات التي، في تتابُعها وتواليها، واحدة بعد الأُخرى، كبيرة كانت أم متوسّطة، تجد بينها شعيرات تواصُل، بل والتفاتات بعضها إلى بعض، بحيث أنّها رغم تعدّدها وتفاوُت أساليبها، بل وتنوّعها، تَصدر عن مجال واحد، أو بعبارة أُخرى عن الرؤية ذاتها، ليست الرؤية فحسب، بل هذا النزوع غير المرئي والمحسوس فقط، إلى قربى بين الأساليب على اختلافها، وقرابة بين الموضوعات على تعدّدها. بل هناك ما يوحي بأنّ موضوعاً واحداً، هو في اتّساعه وتفرغه، يغطّي على المعرض بكامله. ليست وحدة التأليف في المعرض أمراً عارضاً، لكنّها، إذ نتصفّح لوحات المعرض واحدة تلو أُخرى، ليست شيئاً يمكن تحديده، ولا يرجع إلى عناصر يسهل تعدادها. إنّه في باطن اللوحة، في إيقاعها وفي نغمتها. لنقُل إنّه في روح اللوحة إذا صحّت العبارة. إنّه نظامها ومبناها، بقدر ما هو رسالتها وفحواها. إنّنا لا نزال نشعر به من بعيد وقريب، لا نزال نراه يتردّد في اللوحات، من دون أن نجد له، مباشرةً، اسماً.

لعلّنا، ونحن أمام اللوحات، نسمع منها ما يضاهي الوشوشة، التي تهمس في أحيان، بينما تُفصح أحياناً أُخرى. اللوحات، أيّاً كان موضوعها، وإن كان ذلك أبرز في لوحات الليل ولوحات البحر، تملك ما يمكن تسميته فوراً بالموسيقى. لوحات أسامة بعلبكي هي، من ناحية ما، تضاهي أعمالاً موسيقية. في اللوحة ما يتموّج وما تتردّد أضواؤه. هو هذه النغمة التي تتداخل في التأليف وتغشيه وتنتقل فيه. اللوحة هكذا موقعة منغّمة. يمكننا أن نشعر أنّ اللوحة لا تكتمل إلّا وقد تجاوبت فقراتها وتفاصيلها، واحدةً تلو أُخرى. لوحة أسامة هكذا تُضمر، ولو في السرّ والعلن، إرثاً فنّياً.

إنّها لا تكتمل إلّا وخلفها نسق وإيقاع، هي هُما وهي مثالهما، اللوحة لا تكون إلّا بهما، فهي على الدوام ذلك النسق، ذلك الشكل الذي يُعاد تأليفه، ويجعل من اللوحة، على الدوام، هذه الإعادة. الليل لا يكون، وكذلك البحر والمنظر والأشخاص، إلّا بهذا النسق، بهذا النظام الذي هو دائماً إعادة تأليف. هكذا نفهم أنّ اللوحة تبني على إرث فنّي عريق، تبني على تاريخ فنّي متكامل. موسيقى اللوحة هكذا تردّنا إلى هذا الإرث، تردّنا إلى الإرث الانطباعي، ولو في لوحة ثانية، تبقى القراءة الانطباعية ماثلة وحاضرة. لعل من عواقب هذه الموسيقى، ومن مسارحها الأُولى، ومن مواضيعها الدائمة، بحيث يبدو وحده موضوعاً دائماً في فنّ بعلبكي، بل يجعلنا نتساءل إذا لم يكن هو موضوع أسامة المثابر الذي ينشر موسيقاه ويتداعى فيها وإليها. هذا الموضوع هو النور. يتراءى لنا من ذلك أنّ بعلبكي هو، على نحو ما، رسّام النور. حين نرى العتمة فنحن نرى نورها، بل نراها نوراً موقّعاً. حين نرى الأوقات في اللوحات نراها نوراً. لكن البحر في تموّجاته لن يكون سوى هذا النور، سوى تلك الموسيقى التي تنتظم في لحن، في موجات ضوئية. لكن عدداً من لوحات أسامة بعلبكي لا يكتفي بذلك، إنّه يسعى إلى تصوير الضوء، بحيث تكاد اللوحة تكونه فقط، وبحيث نرى الضوء من داخله، نراه طاقة وقوّة، نراه انفجارات ضوئية، الأمر الذي ينقلنا من بعيد إلى فان غوغ.

معرض بعلبكي هذه المرّة، أكثر من غيرها، هو معرض مَديني. رغم أنّ طبيعة الريف موجودة فإنها، في هذا المعرض، ذات إيحاء مَديني. يمكننا أن نتكلّم عن المعرض بوصفه معرض بيروت. نحن في المدينة، لنقُل إنّنا في مدينة، لأسامة بعلبكي بيروته ومدينته. نشعر أنّ المدينة ليست موجودة بحجرها ومبانيها واجتماعاتها فقط، بل نشعر أن لحجر بعلبكي رقة ريشة. إنّ للمشهد الحجري ذات الموسيقى، هكذا نرى في المعرض ما يمكن اعتباره متحفاً بيروتياً.

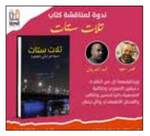

(شاعر وروائي من لبنان)

فعاليات

تحتضن «دار المرايا للثقافة والفنون» في القاهرة، عند السابعة من مساء السبت المقبل، ندوة مناقشة لكتاب **تلات ستّات** (2024) للكاتبيَن **عمر سعيد** و**محمد العريان**. يروي الكتاب، الصادر عن الدار نفسها، حيوات ثلاث عاملات يعشن في أحياء القاهرة الشعبية. يناقش المؤلّفَين كلٌّ من **نيفين النصري** و**داليا شمس** و**وائل جمال**.

حتى نهاية الشهر الجاري، تَعرض منصّة «أفلامنا» فيلم **أحببت بشدّة** (2008) للمُخرجة المغربية **دليلة الندري**. يروي الوثائقي (52 د) قصّة امرأة في الخامسة والسبعين تُدعى فاطمة، تسعى لانتزاع اعتراف الدولة الفرنسية بها محاربةً قديمةً؛ حيث عملت خلال شبابها مرافقةً في الجيش الفرنسي خلال حربه على الهند الصينية.

ألو بيروت عنوان معرض جماعي يستضيفه «غاليري Chaos» في بيروت، ابتداءً من الخامس والعشرين من الشهر الجاري وحتى الرابع عشر من أيلول/ سبتمبر المقبل. يضمّ المعرض أعمال ستّة وعشرين فنّاناً من لبنان ومن خارجه، يتناولون في لوحاتهم مدينة بيروت وعلاقتهم بها من منظورات متعدّدة.

بين التاسع من آب/ أغسطس والتاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر المقبلَين، يستضيف «متحف الفن الإسلامي» في الدوحة معرض **على خُطى آرا غولر: بصمة مصوّر**. يضّم المعرض 155 صورة تعكس اجتهاد الفنّان التركي (1928 - 2018) في تصوير روح بلاده وتراثها، من خلال بورتريهاته وصوره لمدينة إسطنبول وسكّانها ومواقعها الأثرية.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

فائف خالد أبو شاويش شاعر

لحن الحياة

إلى كلّ المبتلين بعشق القدس، المصابين حدّ الإدمان وحدّ الأمل المزمن بأن يكحّل عينيه برؤيتها. أنا غزّة؛ غزّة الوجع والفرح، وجملة فصحى بوجه الليل، وأجمل قصيدةٍ وأروع رواية، بل وأجمل نساء الأرض.

أسكنُ بين الصدى والصوت، أبحثُ في نفسي عن نفسي بين أنقاض هذ الخراب والهواجس. الحياة فيها بلون الجنون، ما بيننا وبينها حربٌ بدون الراء ندفع بعضنا.

غزّة مدينة كوزموبوليتانية، على أبوابها تصحو الشمس، تتجاوز حدود الوطن، تعيش في العالم ويعيش العالم فيها. لم ولن أغادرها، دمي الثمنُ، البيوت تُعدم والمزارع تُسرق والليل قاذفات قنابل يُلغي من التاريخ الزمان والمكان.

أيها الشهداء العاشقون..

مخيمنا النصيرات ينزف بالأسئلة، الموتُ يختبئ وراء الموت وراء الموت. خلف الموت موتٌ وغزّة مفتاح المرحلة، لا شيء يدعو للأسف، سأعتلي قمة الجبل وأحضنُ بسمة الوادي.

أنا لستُ وحدي يا رفيق، سبعون عاماً لم ننم، دمعي يقول بأن آلاف الشجر تمشي معي خلف الطريق. كالريحان كان حفيدي عبد الرحمن، كان الشهد والشهيد والشاهدُ مع أخته وأخيه وآلاف ما زالوا تحت الأنقاض. من يلم الأقمار من الرماد؟ استعجلوا الرحيل قبل كرنفال الحصاد، كان المهندس عبد الرحمن يحمل في يديه أزهار الشمس، ذبحوه في وضَح الكتاب. من كان يحبّ عبد الرحمن فليعمل من غير كلل أو ملل، لا تُوغلوا كثيراً في القبر.. سيعود. الطائرة الملعونة تقصف من جديد، استشهد اثنان ونجوتُ وعبد الرحمن.

غزّة تودّع شهيداً وتستقبل شهيدا.

كان عبد الرحمن يصلّي ويغنّي.. كان ترنيمة السفر، كم كان يحلم بيوم التخرّج ليُدخل البهجة والسرور في زمزم أمه وأبيه، فهُم من عاشوا جلّ حياتهم في الغربة ليتمكّنوا من تعليمه وأخته في جامعات غزّة. عادت الطائرة من جديد، صاح نازحٌ أربعينيّ من الشمال، كان قد انتهى من لحد ابنه.. احتموا بالقبور، أصيبت امرأة من بقايا شظايا القصف واستشهد القبر الذي بجانبها، وانتهت الغارة. اقتربتُ منه وسألته هل أستطيعُ مساعدته في شيء. قال والدمع يترقرق في عينيه: يا ربّ. هذا آخر العنقود بين يديك، ثمّ وجّه حديثه إلينا قائلاً: اسمه سعيد، كانت ابتسامته تحفر نفقاً وتبني سوراً. قلت معزياً: البقاء لله. كلّنا على هذه الطريق، الحق والحق أقول إنني تقيأت أسئلة كثيرة كانت تترنّح في داخلي، لا وقت للدموع فالدمع يخنقه الرصاص ودعاء الصابرين.

نزلَ المطر والمطر لحنُ الحياة. غزّة الوسادة والقبر، نارٌ تسيل بلا رماد أو لهب. لم يبق فيها إلّا الحصيرة... دعوتُ أبا سعيد إلى منازلنا فأبى، ثم وافق على مضض، حاولتُ أن أهدئ مِن روعه، قلتُ: الحرب يا صديقي لا تعرف الخوف. سأطلق سراح جدّتي، وقبل أن أكمل مسحتُ المخاط عن أنفي بتذمّر، في الحرب يا صديقي، أتعلّق بأستار بعوضةٍ ومؤخرة لمبة كهرباء. لمحتُ جرعةً من بسمة على الرجل مع أنه حاول أن يخفيها، وهذا ما شجعني على مواصلة هذياني.

هل تعلم أن كلب جارتنا يرتجف من شدّة النباح على الطائرات، يا للحسرة أقسد اللحظة شيخ جاوز الستين من العمر، كان التعبُ بادياً على وجهه البشوش، يسألنا كيف الذهاب إلى رفح، احمرت عيناه من شدّة الصلاة، وقبل أن أجيب أقسم بالله أنه ترك أحد أبنائه ميتاً في الشمال، غطّاه على سريره وأقفل باب الشقّة خلفه، قلنا: مات.. قال نعم. لكنه ما زال حيّاً هكذا اختلف الرواة. دعوته لبيتنا فلم يتردد. قال: هذا النزوح الثالث لي بدأته أنا وعائلتي من مستشفى المعمداني، نجوت بأعجوبة، نزحتُ بعدها إلى مستشفى الشفاء واليوم من النصيرات إلى رفح. وصلنا إلى المنزل وأنا أردد: كلّ شيء رخيص.

في هذا النهار الأسود، نهار مملوء بالحوقة، صنعت لنا زوجتي الشاي على عجل، وأمي تصرخ: لن أبرح هذا البيت، يكفي ما جرى لنا في 49، لم يزل الطوفان والوتد، هيّا يا رجال ابقوا معنا نتقاسم الجوع والتشرد والسغب. أخذنا نتبادل نظرات الاستغراب في وجوه بعضنا والصمت فاغرٌ فاه.

دَقَّ الباب. صوتُ فتاة: أنا غريبة. مات أهلي جميعاً وجئت سيراً على الأقدام، انتفضت أمي كالذي أصابها مسّ من الجنون، رغم أنها على كرسي متحرك، قفزت وفتحت الباب. كانت فتاة مصل قطرة من مسك وراق الخرف. يا لله، كم حسناء أرداها التسوّل للرغيف. غزّة الفاتنة ونهر السكاكين.

> غزّة، على أبوابها تصحو الشمس، تتجاوز حدود الوطن، تعيش في العالم ويعيش العالم فيها

> أسكنُ بين الصدى والصوت، أبحثُ في نفسي عن نفسي بين أنقاض هذ الخراب والهواجس

رسم للفنان الفلسطيني سهيل سالم

لم أسأل الحسناء عن اسمها. من أين أنت وماذا تريدين؟ من غزّة فصاعداً لن أسأل من كرهوا الحياة وأمّلوا فجر النجاة. غزّة فجرها زغرودة مصلوبة على سيف المحن. لي حقي وذاكرتي، ليس ينساني الرعاة.

لقت الحسناء نفسها في حضن أمي.. أمي كسفينة نوح تجمعنا في مخالبها على جناح دوري استشهد على قارعة الليل بالقرب من ريش حمامة بيضاء من قميص نومها الأسود.

أماه قالت الحسناء. لا وقت فينا للعزاءْ، نحن ملح الفقراء. ملح الهجرة الأولى. تغريبة بني فلسطين الشموع. ترقبنا الحكايات الكسيرة. في الصباح تناولنا جميعاً الخبز مع أكواب الشاي وما تبقى من الزيت والزعتر.

وبعدما أنهينا فطورنا. اقتربت أمي، قبّلتُ يديها وجبينها. يا أمي الطائرات ألقت مناشيرها علينا نحن. منطقة خطر، ساحة حرب ولا بد مما ليس منه بد. هجر جميع من في الحي والشاحنة بباب البيت. قالت الحسناء: اخلع االقرية الظالم أهلها وترمّل. أصابتني قشعريرة دهشة وجنون ونحن نمتطي الشاحنة إلى دير البلح، وأعلم علم االيقين أن سيل الأسى بلغ الزبى في رفح. عدنا لغبراء الزمان وداحس ما زالت ترعى الاحتفال.

الرصاص يصادقنا وحائط يتربع فوق الاسفلت والموت على قائمة الانتظار، وما زلتُ في غزة التي لم يبتلعها البحر والصاعدة إلى سدرة المنتهى. ما أروع الموت المشتهى حين يكون هو الحياة. لن ندفن رؤوسنا في حبة سمسم أو خروع، سنزور الليل في عقر داره، لم يكن السفر ورديأ من شدة الزحم. الموج يصفع بحره حزنا على غرق السفن. جلست الحسناء ترتل بصوت حريري وهي تسند رأسها إلى ضحكة أمي: « يا ظريف الطول وقف تأقلك، رايح ع لغربة وبلادك حسنلك، وشيخنا يدندن: «من سجن عكا طلعت جنازة.. محمد جمجوم وفؤاد حجازي..».

في الأثناء، تسلل إلى سمعي صوت أمي: يا ولدي الجزائر تمسح الحزن عن فلسطين.. تناسل عاشقين. صرخ السائق لا زلنا على قسد الأمن. من أحرق شفاه الأعراب؟

آن للعربات أن تصحو فالصحو قبل الموت موت. لا بد من الصحو لتصبح إنسانا. وفجأة توقف الشيخ عن الغناء وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله. ما الأمر صحت وصاحت الحسناء.. لا. مستحيل، غزة لا تموت لكنها اليوم ماتت.. عظم الله أجرنا وأجركم جميعاً، توقفت الشاحنة وحدقت عيون الجميع نحوي. قلت ما بالكم. قالوا أمك وأمنا جميعاً ماتت. من. حسبنا الله ونعم الوكيل.. بدأوا يتهامسون عن مكان الدفن، أين ومتى. هنا هناك.. في الحنوب، في الشمال.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

ما أطهر هذا الجسد المسجّى بنور الله. تمزقت لغاتنا تمزق المحال والجمال، لا مناص من توحيد كلامنا، لا بد من قرار فهنا السنابل قد أبيدت وما تبقى أصابها بعض الدوار.

حضنت أمي والريح بين كفي دمعتان ونحلتان، جمر ونار فمن سيبدأ بالقرار. يا من جئت على قدر تسعى الحور تركض في الشوارع. عجل بالقرار. أرجوكم لا تبيعوا لحاف أمي الممرع بالدم. لا تمشوا على البساط الأحمر فليس من السنة. يا هذا هل تدري الحزن على أمي يدخلك الجنة.

اقترب مني أحد الركاب من السيارة التي أمامنا وقال: أمك، يرحمها الله، وعظّم الله أجرنا وأجرك والخاطر واحد. ثم أردف قائلا: الموتى دفعوا ثمن موتهم لكن ما هو ثمن الموتى. أي ثمن يمكن أدفعه أنا.. ما هو ذنبي؟

هل ذنبي أنني بقيت على قيد الحياة؟ كيف لي تدبير أمري في الشتات وأبي يتحسس رأسه مع طفلتي كلما مرّ صاروخ لعين. لا ماء، لا خبز، لا حطب، لا غاز. ما أجمل ذاك البرواز وأشار بيده التي بُترت من القصف على سيارته المهمشة، هل تعلم أن السيجارة الواحدة بعشرين دولاراً. تلك أبعاد المؤامرة، غزة المدينة المهاجرة، لا بد أن نعيش، غداً سنذهب للعريش، قالت الحسناء: تلك أبعاد المؤامرة، سنلهو على شواطئ سيناء الساحرة. بدأت الشاحنة في التحرك وأنا أفكر في قبر أمي.

وصلنا رفح وأنا كنت أنوي الذهاب إلى دير البلح.

نظرتُ إلى الفتاة ويا لهول ما رأيت.. هناك لون أحمر فوق الشفاه، يا للسماء كانت بقايا من دماء. تبسّمت وقالت: لا للحرب، لن ننكسر، سنبقى واقفين في الشمس ننتظر القمر، بالحب والإبداع ننتصر، شاء من شاء وأبى من أبى، واللي مش عاجبه يشرب يا فايق من البحر.

سندس صبرة كاتبة

مطر وزيتون وحرب

إنها تمطر. أحب الصباحات الماطرة. مطر أكتوبر هذا ينتظره الفلسطيني، وأبي تحديداً، على أحرّ من الجمر. إنه موسم العيد الفلسطيني. إذ يعتبره إشارة من أمنا الطبيعة لبدء موسم حصاد الزيتون وكرماً منها لتغسل حبات الذهب الأخضر كما يطلقون عليه. يبدو هذا الصباح جميلاً. يسمى هذا الموسم بالعامية الفلسطينية موسم «جد الزتون» فيه تُجدّد الصلة بين الأرض والإنسان وتجتمع العائلة لقطف ثمار الزيتون في أجواء من التعاون والسرور.

زرع جدي الذي ولد عام 1898 «قبل نشأة إسرائيل والانتداب البريطاني» قبل أكثر من 80 عاماً، أي عام 1944، أرضه بالزيتون والتين الشوكي «الصبر» (وعائلتي «صبره» أخذت اسمها من شهرتها بزراعته)، وورثها عنه أعمامي وتعهدوا أشجارها بالرعاية كأنها أحد أبنائهم. عاش جدي عمراً مديداً، قرابة 100 عام. يقول جدي إن شجرة الزيتون تشبه فلسطين. جذورها تضرب في أعماق الأرض وأغصانها رمز للسلام وثمارها إكسير الحياة. والفلسطيني برغم كل محاولات الاستيطان على أرضه متمسك بها لآخر شبر ويقابل العطش الإسرائيلي للإبادة بمزيد من الإرادة الصلبة للحياة، يموت ألف مرة ويعود النبض بحب الوطن من جديد.

■■■

مع بداية تشرين الأول/ أكتوبر من كلّ عام تتجهز عائلتنا من صغيرنا إلى كبيرنا لهذا الموسم. اشترى أبي سُلماً جديداً واحتفظ أخي الصغير «محمود» بقنينة زجاجية ليعبئ بها الزيت بعد عصره ويهديها لصديقته في المدرسة. نعم، نحن في فلسطين نتهادى زيت الزيتون. زيت الزيتون هو هدية لصديق، ومكافأة لناجح، وزاد للمغترب ومباركة لعروس وأكثر من ذلك.

من جهتي، أحاول إقناع أبي بشراء «براد شاي» جديد، ويصرّ على الاحتفاظ بالبراد القديم الذي أكلت منه النيران حتى شبعت واكتسى باللون الأسود. يقدّس أبي أشياءه. لا يستغني عنها بسهولة. حتى في علاقاته هو شخص يغدق على من حوله الاهتمام. دائماً يقول أغلى ما أملك في هذه الحياة هي أرضي، ومكتبتي، وأنتم «يقصد أبناءه». لا أخفيكم سراً، كنت في طفولتي أشعر بالغيرة من مكتبة أبي لانشغاله بها، وأقول له أغلى ما تملك في هذا الحياة هو أنا وأنا وأنا ثم كتبك، سأتبرع بكلّ مكتبك لمدرستي» فيجيبني مازحاً «سأتبرّع بك أنت أو سأبيعك وأشتري بثمنك المزيد من الكتب».

لأبي وضعية جلوس غريبة الأطوار عندما يقرأ، يجلس على كرسيه الخيزراني ويمسك الكتاب بيد ويميل جانباً بثقل رأسه على اليد الأخرى. ترى هل رأس أبي مثقل بالأفكار فيستعين بيده ليمسكه أم سحر حروف العربية تتراقص كصوفي أمام عينيه فلا يتمالك نفسه. كان يجلس هكذا لساعات وبشقاوة طفل كنت أصعد لأحضانه وأغمض عينيه وأهمس في أذنيه «شطة ولا ليمون». شطة يعني أنني سأغمض عينيك بقوة أما «ليمون» يعني سأغمض عينك بلطف. فيمسك بيدي ويقبّلها ويبدأ بدغدغتي من خاصرتي وتتعالى ضحكاتي مع توسلاتي «كفى كفى».

قطف الزيتون مهم، بقدر ما كم العناء الذي نتكبده خلاله ممتع. تتوزع المهام على المجموعة. هذا يفرش الأرض وآخر يتولى مهمة قطف ثمار الأغصان القريبة وآخر يصعد السلم ليقطف ثمار الأغصان المرتفعة وآخر يحضر الفطور وآخر لا يبالي بشيء من هذا؛ يشرب كأس شاي ويتهرّب من أية مسؤولية تلقى على عاتقه. نقطف الثمار بالأيدي، وهذه الطريقة التي اعتمدها جدي رحمه الله. ويستخدم بعض آخر طرقاً أخرى، مثل القطف الآلي والكيميائي. يقول أبي إن القطف بالأيدي لطيف مع شجرة الزيتون ولا يؤذيها، كما يعطي زيتاً فاخراً. الحبات التي تسقط لوحدها أو مع الهزّ الخفيف للأغصان تذهب للكبيس ولا تُعصر، لأمور متعلّقة بجودة الزيت الناتج. تسقط الثمار على المفارش التي توضع تحت الأشجار قبل القطف. وأثناء عملية القطف تتساقط الأوراق الكبيرة بالعمر أو المريضة مع الثمار، ويجب فصلهما قبل إرسالها إلى المعصرة أو الكبيس. تتم عملية الفصل عن طريق غربلتها بغربال أو تسليط تيار هوائي عليها.

تبدأ فعاليات قطف الزيتون في ساعات الفجر الأولى. زيارتنا هذه ستكون للتجهيز للموسم، ولن نبدأ بالقطف اليوم. استيقظت أختي الصغيرة ذات الأربع سنوات «فاطمة» وهي لا تسمح لأحد أن ينام بعد استيقاظها وأيقظت الأسرة بأكملها. لا أحد يتجرأ ويكسر هذه القاعدة، بمن فينا قطتي «أوسكار».

في هذا العام تجهزنا ليوم حافل. وضعنا الأغراض التي تلزم للموسم «سلم ومفارش للأرض وأواني الطبخ» في السيارة وانطلقنا باتجاه أرضنا. لم نشرب قهوتنا بعد، سنشربها في الأرض اليوم. ونتناول الفطور ثم سيذهب كل فرد منا لأشغاله. في الطريق وصلتني رسالة من صديقي الكاتب محمود البسيوني تذكرني بموعد اجتماعنا، لأنه يعاني من ذاكرة الطيور التي أمتلكها وكثيراً ما كنت أتخطى بقصد أو بغير قصد بعض التفاصيل التي يعتبرها مهمة. محمود ينشر الجزء الثاني من روايته ونحضّر لحفل توقيع الرواية معاً. يعرفني مولعة بالعربية والشعر واختارني «فخورة بذلك» عريفاً لحفله.

■■■

ما إن وصلنا إلى الأرض حتى توالت أصوات الانفجارات. انفجارات متتالية تسابق بسرعتها دقات قلوبنا. ما هذا؟ هل هي حرب جديدة تشنها إسرائيل؟ ألم تكتف بشلال الدماء في الحروب والتصعيدات السابقة؟ لكن هذه الصواريخ تخرج من غزة. هل هو خطأ بمنظومة المنصات الصاروخية الخاصة بالمقاومة؟ أيقظتني من دوامة أسئلتي صرخات أختي فاطمة التي ملأت المكان. احتضنتها بقوة وحاولت أن أهدئها. فاطمة شديدة التعلق بي، ولكن لم أفلح بالتخفيف من صدمتها. أتذكر هذا الخوف جيداً. لقد عشته في طفولتي. لمسته بيديي. رئتاي لا تخطئانه. ما زالت رائحة البارود عالقة فيهما.

مع أبجدية الحروف تعلمنا أبجدية الحروب. كنت في قاعة اختبار اللغة العربية وفي داخل القاعة تم اختبار قدرة أوتار قلبي على التحمّل، ولم أكن قد بلغت سنواتي الثماني حينها. استلمنا الأوراق وكتبتُ أسمي أعلاها، حين بدأت الانفجارات تتوالى وأصواتها تقترب من مدرستي «مدرسة القاهرة الابتدائية» الواقعة في حيّ الرمال. لم تكن كلمة حرب أو تصعيد أو صراع ضمن قاموسي بعد، ولم أكن أعرف مدلولاتها المختلفة. انتشرنا في الممرات بين الصفوف نصرخ ونتخبط. ماذا هذا؟ ماذا سنفعل؟ لماذا يحدث هذا لنا؟ أريد أن أحضن أمي! كنت ابنة الثامنة فقط.

أتذكّر حاجتي لحضن، لذلك لم أترك فاطمة للحظة. حالة الهلع كانت تسيطر على الجميع، بمن فيهم المعلمات والإدارة. لأول مرة أري معلمتي تبكي وترتجف خوفاً، فأدركت أن الأمر خطير. كان هذا في أواخر ديسمبر عام 2008 حين شنت إسرائيل حرباً شرسة على غزة وقتلت فقط في اليوم الأول 200 فلسطيني وأكثر من 400 طفل خلال فترة الحرب. في هذه الحرب استخدمت الفسفور الأبيض لأول مرة وعاودت استخدامه في حروبها التالية على غزة، وفي مجزرة مدرسة «الفاخورة» التابعة للأونروا تحديداً استخدمت هذا السلاح المحرم دولياً. وكنتُ طفلة.

قررنا العودة إلى المنزل، ونرجع في يوم آخر حين تهدأ الأمور. في طريق العودة كان المارة يتداولون أخباراً غير مؤكدة بأن عملية اغتيال قد تمت. اقترح أخي الذهاب للتبضع لأسبوع، تحسباً لأيّ طارئ وقد لا نتمكن من الخروج من المنزل. ذهبنا للبقالة والتقطنا على عجل ما نريد ورجعنا للمنزل.

ومرّ الوقت والحرب مستمرة حتى اللحظة. لا تزال الضبابية تسيطر على مجريات الأحداث. ضبابية حول ما يحدث وما سيحدث. لا يقين حول قائمة مهامي اليوم وغداً وربما لشهر. لشخص مثلي مولع بالتخطيط تستفزه هذه الفوضى. لكنها أمر طبيعي بغزة. الحياة مفاجآت لا اختلف. لكن مفاجآت غزة لا تنتهي وأغلبها مفاجآت غير سارة.

> ما إن وصلنا إلى الأرض حتى توالت أصوات الانفجارات. انفجارات متتالية تسابق بسرعتها دقات قلوبنا